من حكايات الشعوب



حكاية عربية (المغرب)

النهر والأربعون عالما

٥

من حكايات الشعوب
حكاية عربية (المغرب)

رسوم .... ليلى الشوا



النمر والأربعون عالما

دار الفتى العربي

من جبالِ أطلس في المغربِ العربي تنبعُ أنهارٌ كثيرةٌ ، وتجري غرباً فتصبُّ في المحيط الأطلسي . ويمدُّ هذه الأنهارَ عددٌ كبيرٌ من الروافدِ المتدفقةِ بينَ الجبالِ ، فتغزرُ مياهُها وتروي البساتينَ والمزارعَ والمراعي في السهلِ الأخضرِ الخصبِ الممتدِّ على ساحلِ المحيطِ .

ونهرُ « أمِّ الربيعِ » ، وهو من أكبرِ تلك الانهارِ ، ينبعُ من الجبالِ وينحدرُ في ودیانٍ عميقة ، ويخترقُ البراري والغاباتِ في وسَطِ المغربِ العربيِّ ، إلى أن يصبَّ في البحرِ غربي مدينةِ « آزمور. »

وتَتَّصِلُ بنهر « ام الرَّبِيع » حكاية غريبة تجعَلُ الناس في المناطقِ القريبةِ منهُ يخافونه أشدَّ الخوفِ ، فهناكَ أُسطورةٌ تقولُ إنَّ النهرَ لا يمنحُ الفلاحين مِيَاهه إلا إذا ابتلعَ في كلِّ سنةٍ أربعينَ ضحيةً من الرجالِ والنساءِ والأطفالِ . وتقولُ الأُسطورةُ إنَّ ذلك يرجعُ إلى « روحِ النهر » وهو جنّيٌّ شريرٌ يسكنُ النهرَ ويتحكَّمُ فيه . لهذا باتَ الناسُ هناك

يخشون السباحةَ في « أمّ الربيعِ » ويخافون عبورَ مخاضاتِه الضحلة ، ومنهم من لا يجرؤُ على عبورِ أيِّ جسرٍ فوقَه ! ذلك لأنَّ الجنّيَّ المقيمَ فيه منذُ القديم ، والذي خُلِقَ من نارٍ ، وكان في بادىء أمرِهِ مخلوقاً وسطاً بينَ الانسانِ والمَلَكِ ، قد أصبحَ في إحدى مراحلِ عمرِهِ يكرهُ الأرضَ وَمَنْ عليها من البشرِ لسببٍ لا يعرفه أحدٌ ، فقرَّرَ أن يوقفَ جريانَ النهرِ ، واستغلَّ السحرَ ليحبس مياهُهُ في مغارةٍ واقعةٍ في أعلى قممِ جبال أطلس ، فسدَّ بابَ المنبعِ الذي ينطلق منه النهرُ بصخرة كبيرة .

وهكذا اختفى النهرُ وأَصبحتِ الأراضي التي كان يرويها ، تعتمد على ماءِ المطرِ وحدَه . والمطرُ يتفاوتُ كثرةً وقلةً ، فمرةً يجيءُ غزيراً ، ومرَّةً يكونُ شحيحاً فيعقبُه الجفافُ وقلةُ المحصولِ . لكنَّ سلطان « آزمور » في ذلك الزمانِ القديمِ كان خبيراً بأسرارِ السحرِ ، فأدرك ما حدثَ ، ولهذا

صعدَ تواً إلى الجبلِ حتى بلغَ منبعَ النهرِ ووجَدَ الصخرةَ الضخمةَ التي حبسَ بها الجنيُّ الماءَ . وأَخَذَ في استخدامِ التعاويذِ التي يبطلُ بها سحر الجِّنيِّ فلم ينجحْ . لَجَأَ إلى تهديدِ الجني فلم ينفعْه التهديدُ ، وتوسَّلَ إليه فما أجدى التوسلُ . لم تتسرب نقطةٌ واحدةٌ من الماءِ ، وعندئذٍ عاهَدَ السلطانُ ربَّهُ ألاَّ يغادرَ الجبالَ حتى يهتديَ إلى وسيلةٍ تمكِّنُه من إطلاق المياهِ المنحبسةِ .

في تلكَ الليلةِ نفسِها جاءَهُ الجنيُّ في المنامِ في هيئةِ رجلٍ عجوزٍ ، ذي شعرٍ طويلٍ أشيبَ وعينين سوداوين غاضبتين . قال الجنيُّ : « لماذا تزعجني بأدعيتك وتوسلاتِك ؟ » قالَ السلطانُ : « شعبي يحتاجُ إلى مياه « أُمِّ الربيعِ » وأنا أتوسَّلُ إليكَ أن تدلَّني كيفَ أعيدُ إليهم ماءَ النهر. » ضحكَ الجنيُّ وقالَ : « اعلمْ أَيُّهَا السلطانُ أنَّ مياهَ « أُمِّ الربيعِ » لن تصلَ مرةً أخرى إلى البحر ، إلا إذا قدَّمتم للنهرِ أربعينَ من علمائِكم » فاعترضَ السلطانُ



قائِلاً : « لكنَّ هذا ثمنٌ باهظٌ » ! أجابَ الجنيُّ : « لا مساومةَ . » واختفى !

عادَ السلطانُ إلى « آزمور» وجَمَعَ علماءَ الدين في البلدِ وقالَ لهم : « أنتم علماءُ ، اليسَ كذلك؟ » قالوا : « بلى . » قالَ السلطانُ : « لا بدَّ أن أنبئكم بأنكم مطالبون بتضحيةٍ كبيرةٍ ، إنَّ جنيَّ نهر « أمِّ الربيعِ » أَبى أَنْ يطلِقَ ماءَ النهرِ الذي حبَسه بقوتهِ السحريَّةِ إلاَّ إذا قدَّمَ البلدُ أربعين عالماً ، فَمَنْ منكمْ يضحِّي بحياتهِ ليعيدَ المياهَ إلى أرضنا ؟ »

وجَمَ العلماءُ لدى سماعِهم هذا الكلامَ وخيَّمَ عليهم الصمتُ ثم طلبَ شيخُهم إلى السلطان ان يمنحَهم مهلةً للتأَمُّلِ والتفكير. فأذَنَ لهم السلطان في ذلك ، وعلى الأثرِ غادروا الجلسة .

بعدَ وقتٍ قليلٍ عادَ شيخُهُم وحدَه فقالَ للسلطان : « فكَّرنا في هذه المسألةِ ووجدنا أن إطلاقَ نهرِ « أمِّ الربيعِ » رهنٌ بتقديم أرواحِنا ، وسيِّدُنا السلطانُ يعلمُ أنَّ هناك فريقين من العلماءِ : فريق

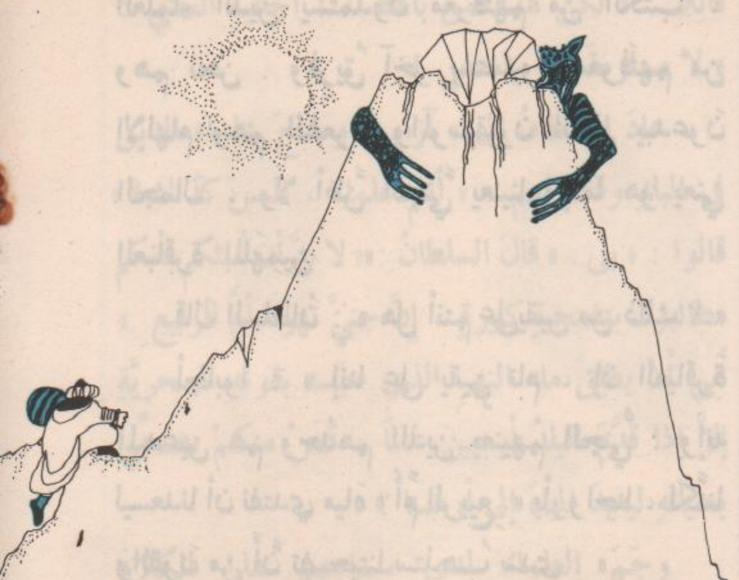
العلماءِ الذين يستمدُّون معرفَتَهم من الكتب ، وهم نحن . وفريقٌ آخر يستمدون معرفتَهم من الإلهام وهم الشعراءُ والموسيقيون الذين يبدعونَ الجمالَ ، ولا أظنَّ الجنيَّ يعنينا وإنما هو يعني العباقرة الملهَمِين . »

قالَ السلطانُ : « هل أنتم على يقين من ذلك ؟ »

أجابوا : « إننا على يقينٍ تام ، إن العباقرةَ المبدعين هم وحدُهم الذين يعنيهم الجنيُّ . وإنه ليسعدنا أن نفتدي مياهَ « أُمِّ الربيعِ » بأرواحِنا ، لكنَّنا واثقونَ من أَنَّ تضحيتنا ستذهبُ سدى . »

عندئِذٍ جمعَ السلطانُ كلَّ مَنْ في مملكتِهِ من الشعراءِ والمغنين والأُدباءِ والموسيقيين ، وروى لهم ما حدث ، ثم قالَ : « إنَّ جنيَّ النهرِ يقتضينا أربعين نَفْساً ، ولن يقبلَ بأقلَّ من ذلك . ويبدو أنَّهُ يتطلبُ موهوبين ، فمَنْ منكم سيضحِّي بحياتِه ليعيدَ مياهَ « أُمِّ الربيع » ؟ »

كان عددُ الحاضرينَ واحداً وأربعين ، فتهامسوا





فيما بينهم ، وسرعان ما تقدَّم كلٌّ منهم بعذرٍ يراه مقبولاً :

قالَ أحمد بن حسين : « زوجتي مريضةٌ ، ولا أستطيعُ أنْ أتركها . »

وقالَ محمد بن علي : « عندي قصيدةٌ لم تكتملْ ، أعُدُّها خير ما نظمتُ ، ولا أستطيعُ أن أخلفَها ناقصة . »

وقالَ عامر بن موسى : « أبي شيخٌ يحتاجُ إلى رعايتي » ، وقالَ ربيع بن سالم : « أخي مريضٌ لا يستغني عن معونتي » ، وقال مروان بن منصور : « أطفالي صغارٌ ولا أحدَ يكفلهم سواي » . وأخيراً نهض من بينهم رجلٌ وقالَ : أنا أقدّمُ نفسي ضحيةَ من أجلِ أن يتدفقَ الماء . كان ذلك الرجلُ هوالحكيم « سيدي رحال » ، المشهورُ بالخيرِ وحسنِ الخلق . قال « سيدي رحال » للسلطان : « إنَّها إرادةُ الله ، فلا تيأَسْ . ولعلَّ الجنيَّ أن يرضى بروحي أنا وحدي دونَ سائر العلماء . أو لعلي أَستطيعُ أنْ أتغلبَ على



سحرِه وأُطلقَ النهر وحدي رغماً عنه . »

قالَ السلطانُ : « ليكنْ ما تراه ، وفّقكَ اللهُ وكان لك معيناً ، إذ يبدو أنه لن يتقدمَ لمعونتك أحدٌ من البشر . »

حملَ « سيدي رحال » متاعَه وصعدَ إلى الجبل . ترى ماذا فعلَ هنالك ؟ لا أحدَ يعرف حتى اليومِ ماذا فعلَ . ولا أحدَ يعرفُ حتى اليومِ ما هي التعويذة التي أبطلَ بها سحرالجنيِّ . ومهما يكنْ ما فعلَه فإنه أجبرَ الجنيَّ على إطلاق نهر « أمِّ الربيع » .

تدَفَّقَتِ المياهُ بسرعةٍ وصوتُها يهدرُ كالرعد ، فجرفتْ في طريقِها الصخرةَ الكبيرةَ التي وضَعَها الجنيُّ ليسدَّ بها المنبع وسحبتِ الصخور ، واقتلعتِ الأشجارَ ومضتْ في اندفاعٍ شديد نحوَ البحر .

في أَثناءِ ذلك ، تناوَل « سيدي رحال » أدواته ، ورسم للنهرِ مجرى جديداً ، يختلفُ قليلاً عن المجرى القديمِ وقال : « في هذه الوجهةِ الجديدةِ ستجري مياهُك أيُّها النهرُ . وسيفيد الناسُ منها فائدةً عظيمةً



ومع ذلك فَانا أخشى أن تسببَ لهم أيضاً آلاماً مُبرِحة . »

ساعتئذٍ كانَ الأربعون الباقون من الفنانين والأدباء قد تبعوا خطى « سيدي رحال » عن بعدٍ ، وهم يكادون يذوبون خجلاً لأنهم تقاعسوا عن التطوعِ معه .

وقال أحمد بن حسين : « هيا بنا ندعو لعلَّ دعاءنا يساعدُ « سيدي رحال » ، ما دامت نفُوسنا لم تساعدْه في صراعهِ ضدَّ جنيِّ النهرِ . »

وردد الآخرون وراءه : « سيُكْتَبُ له النجاحُ بإِذنِ الله . » وزحفوا من الوادي صاعدين بين الجبال . وعندما وصلوا إلى الموضعِ الذي سَجَنَ فيه الجنيُّ النهرَ ، ركعوا عند أسفل الصخرةِ ، ودعوا الله أن يطلقَ « أمّ الربيع . »

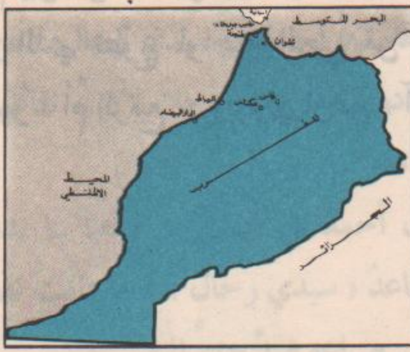
في تلك اللحظة ، كان النهرُ الذي أطلقهُ « سيدي رحال » ، يندفعُ هادراً متدفقاً من الكهف وقد حملَ الصخرةَ التي كانت تحبسُه وهي تتدهور

نحو الوادي ، وقد ازدادت سرعتُها معَ الانحدار شدةً وسقطتْ على رؤوسِ العباقرةِ الأربعين .

ولم يبقَ من الفنانين والشعراء سوى « سيدي رحال » الذي تطوَّعَ لمواجهةِ الجنيِّ من أجل أن يجري نهرُ « أمِّ الربيعِ » ويرويَ أرضَ « آزمور » .



عن المغرب



بلد عربي يقع في أقصى القسم الغربي من شمال أفريقيا، وله ساحلان: الشمالي على البحر المتوسط، والغربي على المحيط الأطلسي. يفصله مضيق جبل طارق عن أوروبا، وتحده الجزائر من الشرق، وموريتانيا من الجنوب، ويحتل مركزاً جغرافياً ممتازاً حيث يشرف على المتوسط والأطلسي وعلى مضيق جبل طارق ذي المركز الاستراتيجي.

مساحته: ٤٥٨٧٣٠ كم٢.

عدد سكانه: ٢١,٠٠٠,٠٠٠ نسمة.

عاصمته: مدينة الرباط.

يعتمد في اقتصاده على الزراعة وتربية الماشية وصيد الأسماك واستخراج المعادن.

كان المغرب تحت الحماية الفرنسية منذ ١٩١٢م وإقليم الريف تحت حماية إسبانيا. استقل المغرب ١٩٥٦ ودعي بالمملكة المغربية.

من حكايات الشعوب

مجموعة منتقاة من قصص الشعوب ، نتعرّف من خلالها على جانب من التراث الإنساني الفولكلوري ، وعلى أجمل القصص التي ابتكرها خيال الإنسان ... هذا بالإضافة إلى معلومات عن البلد وموقعه من خريطة العالم ...

صدر من هذه السلسلة :

طباعة : مؤسسة دار الريحاني
ص.ب ٥٢٧٨/١٣ ـ تلكس RIDCO 41127 LE بيروت

الطبعة الخامسة ، بيروت ـ ١٩٨٥

دار
الفتى
العربي
للنشر والتوزيع

كورنيش المزرعة • بناية الترك • تلفون ٣٠٤١١٠ • العنوان البرقي : دافتنشر • بيروت • لبنان

